خصوصيات ابن برجان في التفسير
من خلال كتابه "تنبيه الأفهام"

الدكتور رشيد زاح
أستاذ باحث متخصص في الدراسات الإسلامية
المغرب

مقدمة

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الصالحين المصلحين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

من فضل الله تعالى على هذه الأمة أن قيض له علماء ربانيين يبينون للناس شرع ربهم بما آتاهم الله من العلم، ويأتي هذا المؤلف لتحقيق أهداف أهمها التعريف بعلم من أعلام المغرب عامة على وجه الخصوص، للتأكيد على دور علمائها في إغناء الفكر الإسلامي والكشف عن أوجه التميز المغربي في شتى العلوم تأليفا ومدارسة.

وقع اختياري للمشاركة في هذا العدد من مجلة المعرفة للدراسات والأبحاث على علم من الأعلام الذين سجلوا أروع صفحات المجد والخلود، وأكسبتهم جهودهم إكبارا في نفوس القدامى والمعاصرين.

ويتعلق الأمر ب: الشيخ العارف القدوة المتصوف الزاهد المجتهد العابد، أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال، المعروف اختصارا بابن برجان، دفين مراكش والمشهور في أوساط المراكشيين بسيدي برجان وأبو الرجال، يوجد قبره على بعد دقائق مشيا من ساحة جامع الفناء في رحبة الحنطة في المدينة العتيقة، كان رحمه الله مفسرا صوفيا محدثا متكلما، له كتب عديدة أشهرها كتاب في التفسير بعنوان:" تنبيه الأفهام إلى تدبر القرآن الكريم وتعرف الآيات والنبأ العظيم".

ويأتي هذا البحث لتسليط الضوء على هذه الشخصية العلمية المتميزة للتعريف بها وبجهودها، باعتبارها علما من أعلام التفسير بحاضرة مراكش، مع الحرص على استكشاف تفسيره المسمى: "تنبيه الأفهام إلى تدبر القرآن الكريم وتعرف الآيات والنبأ العظيم"، لبيان منهجه فيه وهو من العلماء المنتسبين إلى أهل التصوف في الغرب الإسلامي في فترة من تاريخ المغرب المجيد، كل ذلك للتأكيد على دور علماء المغرب في إغناء كتب التفسير والكشف عن أوجه التميز فيه.

واعتمد البحث المنهج الاستقرائي لجمع الأقوال التفسيرية لابن برجان، واعتمد منهجا وصفيا تحليليا في تحديد سمات وخصائص تفسيره وتصنيفها.

وقسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، خصصت المقدمة لبيان أهمية البحث وأهدافه ومنهجه وخطته، أما المبحث الأول فقدمت فيه ملخصا وافيا عن ترجمته، من خلال كتب التراجم والدراسات السابقة، للتعريف به من خلال بيان تاريخ ميلاده ووفاته وشيوخه وتلامذته وأهم مؤلفاته ومحنته، أما المبحث الثاني فهو دراسة مقتضبة تتبعت فيها منهجه في التفسير من خلال قراءة تفسيره

"تنبيه الأفهام إلى تدبر القرآن الكريم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" لاستقراء أهم مميزاته وخصائصه، واستخرجت أمثلة مختلفة عن كل ميزة. وختمت البحث بخاتمة شملت أهم الخلاصات والتوصيات.

المبحث الأول: التعريف بابن برجان[1]

المطلب الأول: اسمه ونسبه

هو الشيخ الإمام العارف القدوة، أبو الحكم، عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن اللخمي المغربي، الإفريقي، ثم الأندلسي، الإشبيلي، شيخ الصوفية[2]. سماه أغلب المفسرون عبد السلام إلا ما كان من ابن الأبار في التكملة لكتاب الصلة الذي سماه عبد الرحمن[3]، وسار على نفس المنوال محمد مخلوف في شجرة النور الزكية[4]، وجده عبد الرحمن المكنى أبو الرجال هو الداخل إلى الأندلس في إمارة المعتضد عباد بن محمد،[5] وابن برجان هو تخفيف لابن أبي الرجال[6]. ويجب الإشارة إلى الخلط الذي يقع فيه البعض بين ابن برجان المفسر وابن برجان اللغوي فالأول المترجم له في هذا البحث هو جد ابن برجان اللغوي لذلك يقال للأول ابن برجان الجد وللثاني ابن برجان الحفيد.[7]

المطلب الثاني: مولده ووفاته

كغيره من العديد من العلماء لا يعرف على وجه التحديد تاريخ ميلاده لكن أورد الذهبي أنه سمع "صحيح البخاري" من: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن منظور، وحدث به[8]. ومعروف لدى المترجمين أن وفاة ابن منظور كانت في شوال سنة تسع وستين وأربع مائة[9]، الأمر الذي جعل البعض يفترض أن ميلاده كان في خمسينيات القرن الخامس، وأنه عاش أكثر من ثمانين سنة على اعتبار أن وفاته كانت في 536 هـ عند أغلب المترجمين باستثناء ابن الأبار الذي أورد أن وفاته كانت في 530هـ.

المطلب الثالث: مكانته

يحتل ابن برجان مكانة متميزة بين مفسري الغرب الإسلامي وحاز هذه المكانة من خلال قيمة مشيخته ومكانة تلاميذه ومؤلفاته وثناء من جاء بعده:

أ: مشيخته

لم تذكر المراجع شيوخ ابن برجان باستثناء حديثها عن ابن منظور الذي سمع عنه صحيح البخاري، وابن منظور هو الإمام المحدث المتقن أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى بن محمد بن منظور بن عبد الله بن منظور القيسي الإشبيلي، حمل الصحيح لأبي عبد الله البخاري عن أبي ذر الحافظ. وكان فاضلا قدوة ثقة. سمع الصحيح وحرره في سنة إحدى وثلاثين واعتمده الأندلسيون وكان جيد الضبط من أفاضل الناس كريم النفس خيارا توفي في شوال سنة تسع وستين وأربع مائة رحمه الله.[10]

ب: تلاميذه

من أشهر تلاميذه:

أبو القاسم القنطري وهو العلامة الحافظ، أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود ابن مفرج، الأندلسي الشلبي، المعروف بالقنطري ذكره الأبار، فقال: كان من أهل المعرفة الكاملة بصناعة الحديث، بعيد الصيت في الحفظ والإتقان، جماعة للكتب، وقد شوور في الأحكام، وله زيادة على ابن بشكوال في تاريخه، روى عنه يعيش بن القديم وغيره، توفي بمراكش في ذي الحجة سنة إحدى وستين وخمس مائة.[11]

والإمام الحافظ البارع المجود العلامة، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد الأزدي الأندلسي الإشبيلي المعروف في زمانه بابن الخراط، كان فقيها، حافظا، عالما بالحديث وعلله، عارفا بالرجال، موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنة والتقلل من الدنيا، مشاركا في الأدب وقول الشعر ووفاته كانت في سنة ست وثمانين وخمس مائة.[12]

وأبو الحسن صالح الهمداني المالقي، الذي روى أيضا عن أبي بكر ابن العربي، وأبي الحسن شريح.[13]

ج: مؤلفاته

– كتاب "شرح أسماء الله الحسنى": خصصه ابن برجان أولا للبحث في المعاني اللغوية لكل اسم من الأسماء الحسنى، ثم استدل عليها باستقراء آيات القرآن الكريم ومن سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، لينتقل في الأخير لبيان سبيل الاستفادة منها للتقرب من الله عزو زوجل. طبع هذا الكتاب من طرف دار المكتبة العلمية ببيروت سنة 2010م، بعد أن حققه أحمد فريد المزيدي وهو كتاب ضخم من جزئين من 800 صفحة.

– كتاب تفسير القرآن المسمى"تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم": وهو من أهم المؤلفات التي تركها ابن برجان، ومن أهم كتب التفسير التي خلفها الغرب الإسلامي، حققه أيضا الشيخ أحمد فريد المزيدي وطبع بدار المكتبة العلمية ببيروت في خمس مجلدات.

– كتاب "إيضاح الحكمة بأحكام العبرة": حققه وقم له جرهارد بورينغ ويوسف كاسويت، طبع بدار بريل للنشر في بوسطن بالولايات المتحدة الأميركية سنة 2016م.

– كتاب "عين اليقين": لم يصلنا وإنما ذكره ابن خلدون في كتابه "الشفاء".[14]

د: أقوال العلماء عنه

– قال عنه ابن خلكان (المتوفى: 681هـ) في وفياة الأعيان:"كان عبدا صالحا".[15]

– أما الذهبي (المتوفى: 748هـ) في سير أعلام النبلاء فقال: الشيخ، الإمام، العارف، القدوة، أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن ابن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن اللخمي، المغربي، الإفريقي، ثم الأندلسي، الإشبيلي، شيخ الصوفية.[16]

متصوف، من مشاهير الصالحين[17]

وقال أبو عبد الله بن الأبار (المتوفى: 658هـ):"كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة".[18]

المطلب الخامس: محنته

عاصر ابن برجان فترة حكم الدولة المرابطية التي كامت تسمى دولة الفقهاء لاحتلال الفقهاء فيها مكانة مرموقة عالية، وواكب رحمه الله الحركة الدينية الصوفية التي ظهرت بالأندلس من قبل طائفة المريدين، فخاف علي بن يوسف أن يثور عليه رموز هذه الحركة كابن برجان– الذي جلب أنظار السلطة في مراكش– ورفيقه ابن العريف كما فعل من قبل ابن تومرت.

وقيل أن الذي دفع علي بن يوسف لاستدعاءه انتشار خبر أن البلاد قد خطبت له في نحو مائة بلد وثلاثين.[19]

وجاء في التشوف أنه لما أشخص أبو الحكم بن برجان من قرطبة إلى حضرة مراكش، سئل عن مسائل عيبت عليه فأخرجها على ما تحتمله من التأويل، فانفصل عما ألزمه من النقد، وقال أبو الحكم: والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي، يعني

السلطان، فمات أبو الحكم، فأمر السلطان أن يطرح في المزبلة ولا يصلى عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء، فدخل على ابن حرزهم رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه فأخبر أبا الحسن بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم فقال أبو الحسن: إن كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقول لك، فقال له مرني بما شئت أفعله، فقال له تنادي في أسواق مراكش وطرقها، يقول لكم ابن حرزهم: احضروا جنازة الشيخ الفاضل الفقيد الزاهد أبي الحكم بن برجان، فبلغ ذلك السلطان فقال: من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله.[20] وقال ابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكملة أبو الحكم بن برجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها قال وهو الذي تقول له العامة سيدي أبو الرجال.[21]

المطلب السادس: تبشيره بفتح بيت المقدس

عرف عن ابن برجان في صفوف المشارقة والمغاربة إخباره بتاريخ فتح الأندلس وبكونه استخرجها من قوله تعالى {الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ }[22]، ونقلت العديد من المصادر هذا الخبر، ففي البحر المحيط في التفسير قال أبو حيان الأندلسي (المتوفى: 745هـ): "كان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يحكي عن أبي الحكم بن برجان أنه استخرج من قوله تعالى: الم، غلبت الروم إلى قوله: في بضع سنين، افتتاح المسلمين بيت المقدس، معينا زمانه ويومه، وكان إذ ذاك بيت المقدس قد غلبت عليه النصارى، وأن ابن برجان مات قبل الوقت الذي كان عينه للفتحص"[23]، ونقال نفس الخبر الألوسي في تفسيره روح المعاني[24]، وفي تاريخ الإسلام للذهبي أن الفقيه مجد الدين بن جميل الحلبي الشافعي وقع إليه «تفسير القرآن» لأبي الحكم بن برجان، فوجد فيه عند قوله تعالى: "الم غلبت الروم" أن الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقدس، ويصير دارا للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل بأشياء في كتابه، فلما فتحت حلب على يد السلطان صلاح الدين، كتب إليه المجد بن جميل ورقة يبشره بفتح القدس على يديه، ويعين فيها الزمان، وأعطاها للفقيه عيسى، فلم يتجاسر أن يعرضها على السلطان، وحدث بما فيها لمحيي الدين، وكان واثقا بعقل المجد وأنه لا يقول هذا حتى تحققه، فعمل القصيدة التي فيها هذا البيت، فلما سمعه السلطان بهت وتعجب. فلما اتفق له فتح القدس في رجب، سار المجد مهنئا، وذكر له حديث الورقة، فتعجب وقال: قد سبق إلى ذلك محيي الدين، غير أني أجعل لك حظا. ثم جمع له من في العسكر من الفقهاء والصلحاء، ثم أدخله بيت المقدس والفرنج بعد فيه لم ينظف منهم، وأمره أن يذكر درسا على الصخرة. فدخل ودرس هناك، وحظي بذلك.[25] ونفس الخبر أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء،[26] والدمشقي (المتوفى: 774هـ) في البداية والنهاية.[27]

المبحث الثاني: خصائص تفسيره

لا شك أن لكل تفسير من التفاسير، قديمها وحديثها أسلوبا متميزا يستمد خصوصيته من خصوصية صاحبه، ويستمد أهميته من المكانة العلمية الفريدة لكاتبه، يصرف فيه قناعاته ويدافع عن آرائه، وهذا المبحث يتناول خصوصية تفسير ابن برجان الشيخ العارف القدوة المتصوف الزاهد المجتهد العابد التي تجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وبعد استقراء كتابه المسمى "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" وجدت أن أسلوبه في التفسير يندرج ضمن المجالات التالية:

المطلب الأول: تفسير القرآن بالقرآن

هذا الصنف من التفسير والذي يندرج ضمن مجال التفسير بالمأثور موجود بكثرة بل هو الغالب في تفسير ابن برجان، فتجده رحمه الله يستعين بآيات القرآن لفهم آيات أخرى، كما أنه اهتم كثيرا بإيراد الصلة بين الآيات التي يفسر بعضها بعضا، وهذه أمثلة عن هذه الخاصية:

مثال1: تفسير قوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}[28]

قال ابن برجان[29]: أشبهت قلوبهم قلوب الكفار قبلهم، فتشابهت أقوالهم لأنبيائهم، فكانوا إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا: هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بأنبيائهم كما قال أولئك: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}[30]، وقوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ}[31].

مثال2: تفسير قوله تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا}[32]

قال ابن برجان[33]: الكفل المثل هنا، قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}[34]، أي مثلين أو أجرين أجر الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وأجر الإيمان بما أنزل من قبل.

والكفل: الحظ والنصيب، على المعهود من التضعيف والتقليل، لما كان من وعده جل جلاله، أن أعطى هذه الأمة على الحسنة عشرا إلى سبعين إلى سبعمائة إلى أن يؤتي جل ذكره بغير حساب جل جلاله النصيب في جنبه الحسنة، إذ النصيب يكون كثيرا ويكون قليلا كما قال جل قوله: {مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا }.[35]

مثال3: تفسير قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.[36]

قال ابن برجان[37] عن حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياق تفسير الآية الكريمة: سميت تلك الحجة حجة الكمال وحجة البلاغ وحجة الإسلام، فأما الكمال فلقوله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}[38]، أي دعائم الإسلام الخمسة بتوابعها. وأما التمام فلأنه جل ذكره أتم كلماته الحسنى عليهم منها ما في قوله جل قوله: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ}[39]، وكان ذلك استجابة منه جل ذكره لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قولهما: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا}[40]. وقولهما عليهما السلام: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}[41].

مثال 4: تفسير قوله عز وجل: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ}[42]

قال ابن برجان[43]: نظيرتها في سورة النحل: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ}[44]، وبمعناها في سورة يس: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[45].

مثال5: تفسير قوله عز وجل {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ}[46]

قال ابن برجان[47]: العجب يكون على أوجه منها، الإيعاد لوجود الشيء والإنكار لكونه، من ذلك قوله جل قوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}[48] وقوله جل قوله حكاية عن رسوله نوح عليه السلام: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[49]، وقوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}[50]، وقد يأتي لإعظام كون الشيء كيف كان هذا مع وجود أضداده كقول الكفار: { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }[51] وذلك لجهلهم بالحقيقة.

وكقول الله جل ثناؤه: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}[52]، أي إنك لتعجب منهم كيف يبعدون ما جئتهم به مع وجوبه؟ كيف يكذبونه مع تحققه؟ وهم يسخرون بك أن جئتهم بما لا تبلغه عقولهم، فيخرج ذلك عجب حق كيف أنكروا ما هو فطرهم، كيف كذبوا بما هم يصدقونه بألسنتهم وأحوال اضطرارهم.

المطلب الثاني: التفسير بالمأثور من الحديث

اعتنى ابن برجان في تفسيره لآيات القرآن الكريم بأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، فلا يترك فرصة إلا وحرص على الاستشهاد بما يعزز ويؤيد رأيه، وهو ما يؤكد مكانته وسط علماء أهل الحديث، حتى صار تفسيره مصدرا من مصادر المرويات ومن أمثلة ذلك:

مثال1 تفسير قوله تعال: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.[53]

قال ابن برجان[54] في تفسيره: أعلم عز جلاله أن العمل بطاعته في الرخاء ينفع في حال الشدة، وفيما جاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا بني تعرف عليه في الرخاء يعرفك في الشدة"[55].

مثال 2: تفسير قوله عز وجل: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ}.[56]

فسر ابن برجان[57] الآية بالإحالة على قوله صلى الله عليه وسلم:" إن عليكم ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر..."[58]

مثال 3: قال عز وجل: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}[59]

قال ابن برجان في تفسير الآية[60]: سألت أم سلمة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا رسول الله ، يغزو الرجال ولا نغزوا وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ}[61]، وأنزل الله جل ذكره : {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }[6362].

وفي أخرى سأل النساء رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بفضل الجهاد فقال: "جهاد إحداكن مهنتها في بيتها" أو " مهنة إحداكن في بيتها تبلغ فضل الجهاد"[64] وفي أخرى: "جهاد إحداكن حسن التبعل".[65]

مثال4: تفسيره لقوله عز وجل حكاية عن ابني آدم عليه السلام: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}[66]

قال ابن برجان في تفسيره[67]: هذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال:" إنه كان حريصا على قتل صاحبه"[68]

مثال:5 تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}[69]

قال ابن برجان[70] لفظ الأنفال مأخوذ من النافلة، ويجوز أن يكون مع هذا اسما على المغانم وقع عليها اسما عرفيا، إذ كانت محرمة على من كان قبلنا فأحلها الله عز وجل لهذه الأمة خاصة فسميت بذلك أنفالا، لأنهم نفلوها إلى أجورهم.

ولما جمعت المغانم يوم بدر أحضر رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها سيفا وقال: نفلنيه يا رسول الله، فقال له رده من حيث أخذته، ففعل فقام مرة أخرى فسأله إياه، حتى قام في الثالثة فقال نفلنيه يا رسول الله، أجعل كمن لا غنى له؟ فقال له رده من حيث أخذته فأنزل الله جل ثناؤه: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ}[7271].

المطلب الثالث: توضيح وجوه القراءات والعناية بها

عمل ابن برجان في مواضع كثيرة من تفسيره على إيراد اختلاف أداء كلمات القرآن، مع عزوها لناقليها والحرص على توجيهها، لبيان أثرها على التفسير ومن نماذج ذلك:

مثال:1 في تفسيره لقوله تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[73]

قال ابن برجان[74]: وقرئ هذا الحرف على خمسة عشر وجها كلها مقروءا بها: "عبد الطاغوت."

على وزن فعل، قرأ بذلك جماعة.

وقرأ الأعمش: "وعَبُدَ الطاغوتِ" بفتح العين وضم الباء؛ وخفض التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن وثاب: " وعُبُدَ الطاغوتِ " برفع العين والباء وفتح الدال، وكسر الطاغوت.

وقرأ الأعمش أيضًا: "وعُبَّدَ الطاغوتِ" بضم العين وفتح الباء وشدها وفتح الدال، وكسر التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن عباس: "وعابدوا الطاغوتِ" على وزن فاعلوا، وكسر التاء من الطاغوت على الإضافة.

و"عَبْدَ الطاغوتِ" بفتح العين والدال وإسكان الباء، وكسر التاء.

و"عُبِدة الطاغوتُ" بضم العين وكسر الباء على وزن فعلت، ورفع التاء من الطاغوت.

و"عُبَدَ الطاغوتِ" على وزن فُعَل بضم العين وفتح الباء والدال، وكسر التاء من الطاغوت.

و"عبد الطاغوتِ" على وزن فعل، وكسر التاء.

و"عَبْد الطاغوتَ" بفتح العين والدال وسكون الباء، ونصب التاء.

مثال 2: قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[75]

قال ابن برجان[76]: قرأ أبي بن كعب " ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه" وكذلك ابن عباس قال: كانت "ووصى" "فالتزقت الواو الثانية فقرؤوها "وقضى" وابن مسعود قرأها كذلك "ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه".

مثال3: يقول الله جل ثناؤه: {وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ}.[77]

قال ابن برجان:[78] قرأ الحسن: عشاء بضم العين يقول عشوا من البكاء.

المطلب الرابع: الاحتكام إلى اللغة والنحو

قال عز وجل {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[79]، مما دل أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين تعرف العرب أساليبه ودلائله، لذلك عمل ابن برجان لفهم الخطاب القرآني على ما عرفه العرب في سنن كلامهم لأن فهم القرآن لا يكون إلا في ضوء اللسان الذي أنزله الله به، ومن أمثلة ذلك في تفسيره رحمه الله:

مثال1 تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}[80]:

قال ابن برجان[81] رحمه الله في تفسير الوقود في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}[82]: الوقود بفتح الواو الحطب وبرفعها اللهب.

مثال 2: تفسير قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[83].

قال ابن برجان: والمشهود به قوله جل من قائل: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }[84] وهو موضع نصب، وذكر بعضهم في قوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }[85] أنه بدل من الأول، فيكون التقدير شهد الله أن الدين عند الله الإسلام بدل، لأن التوحيد والعدل هو الإسلام، والإسلام هو التوحيد والعدل، ويجوز أن يكون بدلا من قوله: "بالقسط" في موضع خفض ويكون بدل الشيء من الشيء وهو هو، لأن القسط هو العدل، والعدل هو الإسلام، والإسلام هو العدل وأي القولين كان فهو حسن والله أعلم بحقيقة الحق والصواب.[86]

مثال 3: في تفسير لفظة "الحواريين".

قال ابن برجان: ذهب الأكثر من المعتبرين أهل الكلام على اللسان العربي أن اشتقاق الحواريين من الحواري، وهو البياض، وقالوا: إنهم كانوا يبيضون الثياب التي يقصرونها، فسموا من اجل ذلك بالحواريين والأشبه في اشتقاقه أن يكون من الحور الذي هو الرجوع. قال عز وجل: {إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}[87]، أي ظن أن لن يرجع معادا إلينا، أما قولهم سميت الحواري لبياضها فليس إلا لأنها حارت إلى ذلك وقد كان أولها في منبتها أن تتمحص لنا بها بالماء والأرض، ثم يخرج الله عز وجل عنها نباتها، فعادت باستعمالها وتخليصها من قشرها، ونخالتها إلى ما كان أصلا لها، وسميت الحوراء حورا لأنها حارت، أي كانت حية في دار الدنيا ثم ماتت وحارت راجعة بعد الحياة الآخرة.[88]

مثال 4: تفسير لولا في القرآن

قال ابن برجان[89]: حكي عن الخليل بن أحمد رحمة الله عليه أنه قال: لولا في القرآن معناها هلا إلا التي في الصافات، قوله جل قوله: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[90]، وقال أيضا إن حرف لو يجيء عبارة عن امتناع الشيء لوجود غيره، أو لوجود الشيء لامتناع غيره، فأمرها إذا مركب من إيجاب ومنع، واتصلت بها لترجحها إلى أحد الجنتين ليفهم خطاب ما اجتلبت من أجله فتقدير قضيتها قبل دخول لا: فلو كان من القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض لأنجيناهم بذلك، ثم جاءت لا فأرجحتها إلى امتناع وجود أولئك، ثم جاءت إلا فاستثنت بعض القرون من كلها في وجود أولئك السادة ومن اتبعهم ممن

أهلك ثم عادت بتأويل هلا على المنجين، فاستثنت منهم البقية الصالحة الذين هم ينهون عن الفساد في الأرض لو كان ذلك لأنجيناه إلا قليلا.

المطلب الخامس: الرجوع إلى الشعر العربي

على غرار العديد من المفسرين وأصحاب الدراسات القرآنية، اعتمد ابن برجان على الشعر العربي في تفسير ما وقف أمامه من ألفاظ، مثله في ذلك مثل حبر الأمة عبد الله بن عباس الذي يعد من أكثر المفسرين بالشعر العربي، ومن أمثلة ذلك في تفسير ابن برجان:

مثال 1: تفسير قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}[91]

قال ابن برجان[92]: المهيمن الشهيد والرقيب والمخبر كما قال الشاعر:

يهيمن بالأخبار في كل موطن وأنت بما تأتيه غير خبير

كما قال الله عز وجل: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}[93]

وقد يكون المهيمن بمعنى القاضي كما قال بعضهم:

وبمهيمن قاض على ما قبله من سنة محدودة وكتاب

وقد يكون بمعنى الشاهد والعلي كما قال الشاعر:

وهو الشهيد المهيمن فاعل ما شاء قدرة واعتلاه

وقد يكون بمعنى: الأمين والمؤتمن قال الشاعر:

ولست مهيمنا ما دمت حيا على أموال أيتام الأياما

المطلب السادس: ذكر العبر التربوية والدعوة إلى تزكية النفوس

لما كان ابن برجان ذلك الشيخ العارف المتصوف الزاهد العابد، وجد نفسه في ثنايا تفسيره حريصا على الدعوة إلى تزكية النفوس وتحليتها بالصفات الحميدة وتغيير الظاهر والباطن بالقيم والأخلاق الحميدة المستفادة من الآيات القرآنية من عبر وأسرار، ومن أمثلة ذلك:

مثال1: في التوكل والتفويض

قال ابن برجان: انظر وفقك الله ما بين كفاية التوكل والتفويض إلى الله عز وجل وما بين التكيس والتكسب، حيث قال للذي ظن أنه ناج من الفتيين للنبوة وكرامة من أراد بذلك: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ}[94]، لم يفوض الأمر إلى ربه تبارك وتعالى في ذلك، فعوقب بأن لبس في السجن بضع سنين، ثم لما جاءه من غير تعرض منه لذلك ولا تكسب صحة نيته في طلب البراءة مما قذفوه به ظلما أخذ الله بسمع امرأة العزيز وقلبها وجعلها تقر على نفسها بما كانت قل تجاحش عنه وتتبرأ منه، وتشهد النساء له بما قد كان جعل الله في قلوبهن يومئذ من الإكبار له عن دنس الريبة والتلوث بالمعصية، لا لمعنى يستفنده بذلك من دين، ولا براءة توبة يترجينها عند الله، وهذا خارج عن الفوائد المعهودة.[95]

مثال2: في التوكل على الله.

قال ابن برجان[96]: وأصل التوكل ومنبعه معرفة الله، ثم أخذ النفس بآداب التوكل، قال الله عز وجل: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[97]، {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[98]، {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[99] ، يعطي بعزه ويمنع بحكمه، فيعتز العبد بعزه، من توجه إليه وعول بنيته عليه ويرضى بحكمه، فإذا شهد العبد الذليل الملك الجليل قائما بالملك والتدبير والتقدير عنده خزائن كل شيء {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}[100]، لا ينزله إلا بقدر معلوم وشاهده قابضا على نواصي المماليك، له خزائن السموات من الأحكام والأقدار الغائبات، وله خزائن الأرض من الأيدي والقلوب والأسباب والمشاهدات.

المطلب السابع: سهولة العبارات والألفاظ

يغلب على أسلوب ابن برجان في تفسير القرآن الكريم من خلال كتابه تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" الوضوح والتيسير والابتعاد عن التطويل والحشو مع سهولة اللفظ المختار لإيصال المعاني دون تكلف ومن أمثلة ذلك:

مثال 1: تفسير قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}[101]

قال ابن برجان في تفسير الآية [102]: أي عقبى دار الدنيا، ومتى تطلق العاقبة فظاهره أن المراد به خير كقوله تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[103] وقوله تعالى: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[104].

مثال 2: قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[105]

قال ابن برجان[106]: قضى ها هنا، بمعنى أمر وهذا من بعض وجوهها.

المطلب السابع: التفسير الإشاري

يقصد به تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا، وقد اختلف العلماء في التفسير المذكور فمنهم من أجازه ومنهم من منعه.[107]

قال الإمام الغزالي في الإحياء: "وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل".[108]

مثال1: تفسير قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}[109]

قال ابن برجان: فرق به بين الحلال والحرام والمواعظ والأحكام والهدى والضلال والوعد والوعيد، وقد كان مجملا محكما في أم الكتاب، ففصله إلى ما فصله إليه، لذلك سماه فرقانا. ولما جعل فيه من معنى الفرقان الموجود عن الروح الموحى به مع الملك إلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وما جعله في قلوب أهل العلم والإيمان من الفرقان المذكور بقوله: (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) وهو تمييز صور المعاني في الباطن هو في الباطن كتصوير الصور في الظاهر.[110]

مثال2: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}[111]

قال ابن برجان: غطاء الجهل والغفلة في هذه الحياة، اعلم أنه من كان بصره في هذه الحياة الدنيا حديدا رأى هذا الحق المشهود به بشهادة الحق كله أو جله وهو عمدة الوجود، بل هو من الموجودات بمثابة النقطة من الخط بها مبدؤه وبها اتصاله وبها انتهاؤه ، كذلك الله – جلَّ جلالُه – وتعالى علاؤه وشأنه هو الأول في كل موجود وهو الآخر وهو الظاهر فيه وهو الباطن.[112]

مثال 3: قوله جل جلاله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[113]

قال ابن برجان: ودعاؤك إليه التضرع وإظهار الحاجات والفاقة، كما قالوا: الدعاء زينة للآلات وحلية للأدوات، وإظهار الحاجات إلى رب العالمين والعباد في الدعاء على ثلاث ضروب بعد اجتماعهم في أصله:

- فدعاء بالأقوال: وهو دعاء العامي.
- ودعاء بالأفعال: وهو دعاء الزاهد.
- ودعاء بالأحوال: وهو دعاء العارف، وهذه المنزلة مشتركة بين الدعاء والاستدعاء، فالدعاء ما تقدم ذكره، وهو النداء والتضرع وإظهار الفاقة، والدعاء بالأحوال والأفعال هو الاستدعاء؛ لأنه انتظار بحالة الاضطرار، ولا بد للداعي من استدعاء في دعائه، وهو إظهار الاضطرار والافتقار، ولا بد من استعمال معنى السؤال، ليجمع له ذلك.[114]

مثال 4: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[115]

قال ابن برجان في تفسير هذه الآية: ومن عرف لم يعرف منه إلا ما يحبه لأجله، ولذلك كانت المعرفة من علامات المحبة، ومن عرف فمن علامات معرفته أن يرى العارف نفسه في قبضة العزة تجري به لطائف القدرة، ولذلك كان شأن العارف المحقق السكون تحت جري الأحكام والطمأنينة لتصريف القضاء له وعليه.[116]

مثال5: في عقدة لسان موسى عليه السلام

قال ابن برجان[117]: قال المفسرون أن عقدة لسان موسى عليه السلام كانت لأجل جمرة جعلها في فيه لقصة ذكروها كانت بين فرعون وامرأته في شأن موسى امتحنه بها، والصحيح والله أعلم بما ينزل أنه كان رجلا عبرانيا في مجاورة القبط ثم تغرب إلى أرض مدين وجاور العرب فتعرب من أجل ذلك مدة سنين كان فيما هنالك قال الله عز وجل: {فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ}[118]، فكانت لأجل ذلك لكنة في لسانه، أي لم يكن فصيحا في لسانهم كأخيه هارون.

مثال 6: تفسير قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[119]

قال ابن برجان[120]: اختلف في معنى هذا، وفصل الخطاب فيه والله أعلم: إن المراد بذلك: ما انتقص الله عز وجل من أطراف أرضهم كأرض عاد وثمود ومدين والموتفكات وغيرهن بالإهلاك والتدمير، ولم يكن العلماء يومئذ موجودين كما ذكروا أنهم العلماء، ولا كان ظهر تغلب الإسلام على بلد من البلاد.

ثم قال أما نظيرتها من سورة الأنبياء قوله: { أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}[121] ، فعبارة عن حال الإسلام يومئذ في اقتباله وشبابه، فكانت الأرض تنقص من أطرافها بأخذ المسلمين إياها بقول الله جل قوله: فهلا أقاموا ذلك آية لهم على غلبة الإسلام على من يليه، دل على هذا التأويل قوله جل قوله: { أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}[122]، فكان فحوى الخطاب من ذلك إنذارا بما هو كائن اليوم، فإنه سيكون المقتبل مدبرا والشباب هرما كما قال رسول الله صلى الله عليه:" بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ".[123]

خاتمة:

بعد أن عشنا مع هذا البحث بمبحثيه ومطالبه، نقف هنا لنسجل أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

- ✓ عرف البحث بالإمام ابن برجان، الأمر الذي مكن من فهم السر في اعتلائه مرتبة عالية بين مفسري المدرسة المغربية.
- ✓ تمكن البحث من رصد قائمة طويلة من أقواله التفسيرية التي تظهر مدى جهوده في خدمة كتاب الله من خلال إغناء الثروة التفسيرية.
- ✓ أثبت البحث أن من معالم خدمة ابن برجان لكتاب الله تقديم شروحات مبسطة لتيسير الفهم والتطبيق.
- ✓ أظهر البحث أن من صور التفسير عند ابن برجان استعانته بآيات القرآن لفهم آيات أخرى، كما أنه اهتم كثيرا بإيراد الصلة بين الآيات التي يفسر بعضها بعضا.
- ✓ من مظاهر التفسير عند ابن برجان اعتناؤه بأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ليعزز ويؤيد رأيه.
- ✓ أظهر البحث بوضوح أن ابن برجان عمل في مواضع كثيرة من تفسيره على إيراد اختلاف أداء كلمات القرآن، مع عزوها لناقليها والحرص على توجيهها، لبيان أثرها على التفسير.
- ✓ قدم البحث نماذج للتفسير الإشاري الصوفي الذي عمد فيه ابن برجان إلى تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية ظهرت له باعتباره من أرباب السلوك والتصوف.
- ✓ كان ابن برجان حريصا في ثنايا تفسيره على الدعوة إلى تزكية النفوس وتحليتها بالصفات والأخلاق الحميدة المستفادة من الآيات القرآنية من عبر وأسرار.
- ✓ على غرار العديد من المفسرين وأصحاب الدراسات القرآنية، اعتمد ابن برجان على الشعر العربي في تفسير ما وقف أمامه من ألفاظ.

وفي الأخير يدعو البحث إلى الاستفادة من التراث التفسيري، ومن التجربة الخاصة للإمام ابن برجان، وأن نتعامل مع هذا التراث ككنز لا يقدر بثمن، وأدعو نفسي والباحثين لتصريف الجهود لدراسته كتابه الآخر في التفسير والمسمى: "إيضاح الحكمة بأحكام العبرة "

والذي صدر حديثا بتحقيق لجرهارد بورينغ ويوسف كاسويت ونشر بدار بريل للنشر في جامعة ليدن ببوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية.

والحمد لله أولا وأخيرا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

---

[1] انظر ترجمته في وفيات الأعيان (4/ 237) وتاريخ الإسلام ت بشار (11/ 656) وسير أعلام النبلاء ط الحديث (14/ 465) وفوات الوفيات (2/ 323) والوافي بالوفيات (18/ 260) ولسان الميزان (4/ 13) وطبقات المفسرين للسيوطي (ص: 68) وطبقات المفسرين للداوودي (1/ 306) وطبقات المفسرين للأدنه وي (ص: 169) والأعلام للزركلي (4/ 6) ومعجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» (1/ 283)

[2] سير أعلام النبلاء (14/ 465)

[3] انظر التكملة لكتاب الصلة (3/ 21)

[4] انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (1/ 194).

[5] انظر التكملة لكتاب الصلة (3/ 21)

[6] سير أعلام النبلاء (16/ 245).

[7] الوافي بالوفيات (18/ 260)

[8] سير أعلام النبلاء (14/ 465).

[9] سير أعلام النبلاء (13/ 481)

[10] سير أعلام النبلاء (13/ 481)

[11] سير أعلام النبلاء (15/ 189)

[12] سير أعلام النبلاء (15/ 368-369)

[13] الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (2/ 126)

[14] سير أعلام النبلاء (20/ 72)

[15] وفيات الأعيان (4/ 236)

[16] سير أعلام النبلاء (20/ 72)

[17] الأعلام للزركلي (4/ 6)

[18] التكملة لكتاب الصلة (3/ 21)

[19] انظر الطبقات الكبرى للشعراني المسمى لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (1/ 14)

[20] التشوف ص170 والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (2/ 76و77).

[21] الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (2/ 76و77).

[22] [الروم: 1 – 4]

[23] البحر المحيط في التفسير (8/ 374)

[24] تفسير الألوسي المسمى روح المعاني (11/ 22)

[25] تاريخ الإسلام (12/ 484)

[26] سير أعلام النبلاء (21/ 358)

[27] البداية والنهاية (12/ 398).

[28] [النساء: 78]

[29] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2 ص86.

[30] [يس: 18]

[31] [الأعراف: 131]

[32] [النساء: 85]

[33] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2 ص92.

[34] [الحديد: 28]

[35] [النساء: 7]

[36] [المائدة: 3]

[37] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2 ص148.

[38] [المائدة: 3]

[39] [الفتح: 27]

[40] [البقرة: 128]

[41] [البقرة: 129]

[42] [الأنعام: 148]

[43] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2 ص 281.

[44] [النحل: 35]

[45] [يس: 47]

[46] [يونس: 2]

[47] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2 ص 394.

[48] [ق: 2، 3]

[49] [الأعراف: 63]

[50] [ص: 4]

[51] [ص: 5]

[52] [الصافات: 12]

[53] [الصافات: 143، 144]

[54] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 4 ص 509.

[55] مسند أحمد ط الرسالة (5/ 19) رقم الحديث 2803 والمعجم الكبير للطبراني (11/ 123) رقم الحديث 11243 والمستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 623) رقم الحديث 6303: بلفظ :عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا غُلَامُ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ بِاللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلَائِقَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُعْطُوكَ شَيْئًا لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُعْطِيَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ أَوْ يَصْرِفُوا عَنْكَ شَيْئًا أَرَادَ أَنْ يُصِيبَكَ بِهِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ جَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ»

[56] [الانفطار: 10، 11]

[57] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 1 ص 180.

[58] صحيح البخاري (4/ 113) رقم الحديث 3223 بلفظ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " المَلاَئِكَةُ يَتَعَاقَبُونَ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ، وَصَلاَةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي، فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ يُصَلُّونَ " وصحيح مسلم (1/ 439) رقم 632.

[59] [النساء: 32]

[60] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2ص 42.

[61] [النساء: 32]

[62] [الأحزاب: 35]

[63] مسند أحمد ط الرسالة (44/ 320) رقم الحديث 25736 وسنن الترمذي ت بشار (5/ 87) رقم الحديث 3022.

[64] المعجم الأوسط للطبراني (3/ 163) رقم الحديث 2807 وشعب الإيمان للبيهقي (11/ 177) رقم الحديث 8368

[65] شعب الإيمان للبيهقي (2/ 415) رقم الحديث 1152.

[66] [المائدة: 28]

[67] انظر "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2ص 156 و157.

[68] صحيح البخاري (1/ 15) رقم الحديث 31 وصحيح مسلم (4/ 2213) رقم الحديث 2888

[69] [الأنفال: 1]

[70] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2ص 430 و431.

[71] [الأنفال: 1]

[72] صحيح مسلم (3/ 1367) رقم الحديث 1748

[73] [المائدة: 60]

[74] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2ص 169 و170.

[75] [الإسراء: 23]

[76] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 386.

[77] [يوسف: 16]

[78] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج3 ص 100

[79] [الشعراء: 192 - 195]

[80] [آل عمران: 10]

[81] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 1 ص 501.

[82] [آل عمران: 10]

[83] [آل عمران: 18، 19]

[84] [آل عمران: 19]

[85] [آل عمران: 19]

[86] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 1 ص 508-509.

[87] [الانشقاق: 14]

[88] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 1 ص 550.

[89] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 71.

[90] [الصافات: 143، 144]

[91] [المائدة: 48]

[92] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 2 ص 165.

[93] [المائدة: 15]

[94] [يوسف: 42]

[95] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 104.

[96] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 243.

[97] [آل عمران: 122]

[98] [الطلاق: 3]

[99] [الأنفال: 49]

[100] [الرعد: 8]

[101] [الرعد: 42]

[102] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 217.

[103] [طه: 132]

[104] [الأعراف: 128]

[105] [الإسراء: 23]

[106] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 386.

[107] مناهل العرفان في علوم القرآن (2/ 78)

[108] إحياء علوم الدين (1/ 293)

[109] [الإسراء: 106]

[110] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 429.

[111] [ق: 22]

[112] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 5 ص 180.

[113] [البقرة: 186]

[114] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 1ص 400.

[115] [البقرة: 255]

[116] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 1ص473-474.

[117] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 521.

[118] [طه: 40]

[119] [الرعد: 41]

[120] انظر: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" ج 3 ص 213.

[121] [الأنبياء: 44]

[122] [الأنبياء: 44]

[123] صحيح مسلم (1/ 130) رقم الحديث 232. ومسند أحمد ط الرسالة (6/ 325) رقم الحديث 3784